*للدكتور ظهور احمد اظهر

بسم الله الرحمن الرحيم

الاجتهاد و شاعر الاسلام العلامة محمد اقبال

(كلمة ألقيت فى الملتقى السابع عشر المنعقد فى الجزائر فى يوليو الماضى)

لا شك أن الاجتهاد ميزة بارزة تمتاز بها الشريعة الاسلامية الغراء و أنه مبدأ حيوى من مبادئ الفقه الاسلامى الذى لم يزل—و لايزال و لن يزال - يلعب بدور حيوى بناء فى حياة أمتنا الاسلامية و هو من المبادئ الشرعية التى أحبها الرسول صلى الله عليه وسلم و أقرها و أجازبها و لعل هذا هو السبب الذى جعل شاعر الاسلام العلامة محمد اقبال يعنون محاضرته عن الاجتهاد بمبدأ الحركة فى بناء الاسلام و هو يعنى و يقصد بهذا العنوان بأن الاجتهاد قوة حيوية و طاقة محركة وراء النشاطات و الجهود التى قام بها فقهاء الاسلام من أجل بناء التشريع الاسلامى فى شتى العصور منذ البداية الى يومنا هذا !

و أما الاجتهاد لغة فهو الجد فى الامر و البذل ما وسع المرء أن يبذله و عند الاصوليين هو بذل اقصى الجهد في استنباط مسئلة من المسائل الشرعية حتى لايبقى المجال للمزيد من السعى و قد استقر اصطلاحهم على ان الفقه هو الاجتهاد و ان الفقيه المجتهد فى رأى بعضهم هو العالم الذى يشق الاحكام و يفتش عن حقائقها و يفتح ما استغلق منها !

و أما العلامة محمد اقبال رحمه الله فهو شاعر الاسلام و فيلسوف الشرق و المفكر النابغة و الداعية المصلح الذى ولد فى ١٨٧٧م و توفى فى ١٩٣٨م و قد كان من أولئك الاعلام الافذاذ الذين قلما يجود الزمان بهم !

و يجدر بنا قبل كل شيء أن نلم الماما بالدور البناء الذى قام به هذا الشاعر الفذ و الفيلسوف المبدع فى المجال الاسلامى الدولى عامة و المجال الوطنى خاصة ولقد كان اقبال من هؤلاء القادة المصلحين والمفكرين الزعماء الذين يجمعون بين تراث الماضى و الحاضر فيمهدون السبيل للمستقبل و انه لم يكن من الغلاة المتطرفين و انما كان من الذين يؤمنون بالتعادل و التوازن فى كافة المجالات العملية و ذلك لان التعادل هو روح الحياة و التوازن هو نظام الكون ، ان اقبال كان قد اختار طريقا بين التقدمية

---

*أستاذ الادب العربى الحديث بجامعة پنجاب بلاهور

الجامحة المفرطة و الرجعية الجامدة السوداء ! و هذا هو الطريق الوسط الذى قال عنه سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم بأنه خير الامور و احسنها دائما و هذا هو الصراط المستقيم الذى لاعوج فيه و لاضرار ! انما هو صراط العزيز الحميد الذى له ما فى السموات و ما فى الارض صراط الحق الذى اصطفاه الله لعباده المتقين الاخيار !

ان اقبال لم يكن من الرجعيين المتزمتين كما انه لم يكن من التقدميين المتطرفين و انما كان يعارض هؤلاء و اولئك فمرة كان يوبخ الرجعيين و يزجرهم و يزدريهم و يلومهم على التكسل و التخلف و الرضا بحياة الذل و العبودية و أخرى كان يوبخ و يزجر التقدميين المتطرفين على جموحهم و طغيانهم الذين يرفضون كل قديم و لوكان حقا و حتى ماضيهم المجيد و يرحبون بكل جـديـد و لوكان باطلا و حتى بالافكار الاجنبية الهدامة !

ان ما تركه العلامة اقبال من التراث الشعرى و الفكرى كل ذلك يدل على أنه كان شاعر العمل الحر و التقدم المثمر و الثورة البناءة ضد التخلف و الرجعية و الجهل و الاستعمار و كان يهتم بالدين كما أنه كان يهتم بالدنيا انه حين نادى بالدين لم ينس نصيبه من الدنيا انه كان دائم التضرع و الدعاء فكان يدعو الله عز و جل فيطلب منه حسنة فى الدنيا و حسنة فى الاخرة عاملا بما علمنا الله به فى كتابه العزيز انه لم يهمل الحياة الدنيا و انما اهتم بها بالغ الاهتمام حيث كان يراها ميدانا للعمل الجاد و مزرعة للاخرة انه لم يكن يحب لابن آدم ان يرضى بحياة الذل و المسكنة قابعا فى زاوية مظلمه قانعاً بما قسم له و انما كان يحثة و يحرضه على جهاد الحياة و العمل الجاد المستمر و الثورة على الظلم و العبودية و كان يحب أن يقتحم الانسان خضم الحياة و معاركها العملية و كان يقول ما معناه :

ان عمل المرء هو الذى يعبر عن حياته فيصورها بلون الجنة او النار ! و الا فانه لا شئ الاقبضة من التراب—ان الانسان فى نفسه ليس ملكا و لا شيطانا و انما هى اعمال الانسان التى اما يفوق بها الملائكة أو الشيطان ! فالانسان ليس ملكا و لا شيطان و انما هو انسان و عمله !

و كان اقبال يعتقد بأن الانسان خليفة الله و نائبه على ارضه و انه قد خلق ليقوم بما أراد له الله ان يقوم به من عمل و نشاط فى أرضه و فى كونه الواسع الذى لا يعرف له حدود و لا ثغور ! انه كان ينادى بأن الانسان اذا كانت له شخصية قوية كاملة فعالة فبامكانه ان يفرض نفسه على الزمان و على المكان فيغير مجرى التاريخ و يثبت على صفحاته من المعالم و الاثار قد تخلد ذكراه و يموت فلايموت ذكراه ان اقبال كان يعرف الغرب و ثقافته الحديثة و تمدنه الجديد كما انه كان يعرف النظام الصناعى الاوربى الحديث و تحدياته و كذلك فان (اقبال) لم يكن يعارض العقل السليم المصيب و انما كان يعارض البوار و الدمار و الفساد الذى وراء العقل

الناقص القاصر عن ادراك الحق ! كما أنه لم يكن يحب الديالة التى تعلم الناس الذل و المسكنة و تفرض عليهم حياة الفقر و البؤس ! انه لم يكن يرضى بالفكرة القائلة بالقضاء و القدر الذى لا يترك للانسان مجال العمل الجاد و الكفاح الحر ! انه كان يتاذى بمايراه من الصراع الطبقى المرير فى المجتمع البشرى و لكنه كان يتاذى فى نفس الوقت بمايراه من الحرمان و الاحتياج تعانى منه طبقات المعدمين و الفقراء فى ناحية و الترف و النعيم تتمتع به طبقات الاثرياء و المترفين فى أخرى ان الذى كان يراه اقبال صوابا هو ان القرآن الكريم قدجاء ليقوم الناس بالقسط و العدل القائم على أسس الحرية و المساواة فيقول فى بيت من ابياته الشعرية :

ان سر الشريعة الاسلامية الغراء انما هو العدل و المساواة حتى لا يبقى انسان فى الدنيا يحتاج الى غيره فى لقمة العيش !

و كذلك فان اقبال كان يعرف التصوف الذى يعلم الناس الاحتقار بالدنيا و الاستغناء بما يكفى للانسان و لكنه كان فى نفس الوقت يرى ان التصوف المتزمت القابع فى زوايا المتخلفين من المتصوفة الجهلاء انما هو مكر و خداع و غل ملتف فى اعناق الضعفاء و السذج من العباد و انه حيلة من حيل الشيطان و كيده ! انه كان يحب الدين و يؤمن به و لكنه فى نفس الوقت كان يبغض هؤلاء الناس الذين ينهبون اموال الناس و يستغلونهم باسم الدين !

فهذا هو اقبال شاعر الاسلام النابغة وفيلسوف الشرق المبدع ذلك الذى اعرض عن التطرف و اختار الطريق الوسط القويم و الذى مهد الطريق لنفسه بين الرجعية و التقدمية المتطرفتين و هذا هو اقبال الذى كان ينادى بالاجتهاد فى الدين و له افكار و آراء خاصة فى هذه المسئلة و المسائل الفقهية الاخرى الا ان هذه الافكار و الاراء لا توجد منظمة مجتمعة مرتبة و انما توجد متفرقة مبعثرة فى شعره و فى محاضراته و فى رسائله الا انه لابد لنا ان نقف وقفة قصيرة حتى نجمع بعض هذا المتفرق المبعثر من الافكار و الاراء ما امكن لنا من الجمع و ما وسع له هذا المختصر من المقال.

اولا : فى رسائله :

و للعلامة محمد اقبال رسائل كثيرة كتبها و بعث بها الى بعض اقاربه و اصدقائه و اتباعه من الشعراء و الادباء و الشباب و رجال الدين و العلماء و الباحثين و الزعماء السياسيين و القادة المصلحين على المستوى الوطنى و الدولى و قد احتفظ التاريخ بهذه الرسائل من حيث اهتم بها الكثيرون من الكتاب و الباحثين فبحثوا عنها و جمعوها ثم طبعوها و نشروها فى عدد من المجاميع الرسائلية. و رسائل اقبال هذه كما قلنا كثيرة الجوانب متنوعة الموضوعات واسعة الافاق و هى مليئة بالافكار و الاراء

السياسية و الفلسفية و الادبية و الدينية و لاتخلو هذه الرسائل من آراء اقبال فى مسائل الفقه الاسلامى و اصوله و تاريخه و على رأسها مسئلة الاجتهاد.

و مما يجدر بالذكر بهذه المناسبة ان العلامة محمد اقبال كان يريد ان يؤلف كتابين أحدهما فى التفسير و اصوله و الثانى فى الفقه الاسلامى و اصوله الا ان منيته قد حالت دون ذلك فلم يوفق فيما اراد فاننا نراه يكتب الى بعض اصدقائه من العلماء فيقول ما معناه :

"أننى على و شك الرحيل و لكننى اتمنى ان املى بعض الاراء و الافكار عن القرآن الكريم و اريد ان اكرس ما بقى من عمرى و قوتى و حيويتى فى سبيل خدمة هذا الكتاب العظيم حتى تتاح لى زيارة الرسول صلى الله عليه وسلم يوم الجزاء و قلبى راض مطمئن مسرور بأننى قد بذلت ببعض ما استطعت من جهدى فى خدمة الدين القيم الذى جاء به !"

و نراه فى سبتمبر سنة ١٩٣٧م اى قبيل وفاته بسبعة اشهر فقط يكتب رسالة الى صديق له و يبدى فيها عن اسفه و المه على ضعف البصر و قواه المتخاذلة حيث لم يكن يستطيع ان يقرأ او يكتب شيئا فيقول :

"ان الاطباء قد أشاروا على ان امتنع عن القراءة و الكتابة و ان الرد على رسائل الاخوة و الاصدقاء قد يقوم قد يقوم به البعض من اصدقائى او ولدى (جاويد) و لقد كنت انوى ان اقوم بتاليف كتاب عن اصول الفقه الاسلامى الا ان هذا الامل الان يبدو وهماً او حلماً بعيدا !"

و قد كان اقبال مفكراً مصلحاً فلم يكن يؤمن بتلك التقدمية الجامحة المتطرفة التى ترفض كل قديم و تتوق الى كل جديد و انما كان يؤمن بالتعادل و التوازن فى الحياة و شئونها فلم يكن من ادعياء الاجتهاد القائلين بكل تغيير و تنسيخ فى مبادئ الدين و اسسه و ذلك لانه كان يعتقد بان اصول هذا الدين و مبادئه خالدة دائمة اذهى سنن الله و كلماته التى لا تبديل لها فنراه يكتب الى صديقه العلامة سيد سليمان الندوى الذى شكك فى آراء اقبال الاجتهادية التى عبر عنها فى احدى رسائله اليه فظن بأنه يقصد التبديل او التنسيخ بالاجتهاد حتى فى العبادات الاسلامية المنصوص عليها فيقول اقبال ما معناه :

"أننى لا اريد اى تغيير او تنسيخ فى العبادات الاسلامية المنصوص عليها و انما حاولت فى الكتيب الذى الفته عن الاجتهاد ان اقيم الدلائل الواضحة على ان العبادات الاسلامية المنصوص عليها خالدة دائمة و لا مجال للتغيير او التبديل فيها و لكن باب المعاملات مفتوح على المجتهدين و اجتهادهم فهناك اسئلة اريد ان ابحث عن اجوبتها العصبية المرضية و من ضمنها المسئلة

المعضلة عن اصالة الحديث النبوى و صحتها و حجيتها و ان البحث الذى قمت به فى هذا الباب لم يقدنى الى جواب يرضينى و يطمئن بها قلبى و ان الذى اقصده انما هى دراسته الشاملة للمعاملات الاسلامية فى ضوء التشريع المعاصر و لكن ليس باسلوب مقيد و انما باسلوب يقوم على النقد السليم و الرأى المصيب !"

و من الجدير بالذكر هنا ان آراء اقبال الفقهية و الاجتهادية المبعثرة فى طيات رسائله الكثيرة من هذا النوع انما كانت موجهة الى العلامة سيد سليمان الندوى الذى كان من كبار العلماء و علما من الاعلام فى شبه القارة و هو الذى كان يساعد اقبال فى المسائل الدينية و المشاكل الفقهية و يزوده بالمعلومات القيمة الموثوق بها و المواد الدسمة المعتمد عليها عند العلماء الراسخين فى العلم ففى بعض رسائله من هذا النوع يكتب الى صديقه الندوى و يلح عليه ان يقوم بتأليف كتاب عن اصول الفقه و تاريخه و مما كتب اليه :

"ان اشد ما نحتاج اليه فى الوقت الحاضر هو تاليف كتاب جامع عن تاريخ الفقه الاسلامى الشامل ، و قد نشر كتاب صغير عن هذا الموضوع فى مصر و قد اتيح لى دراسته الا انه مع الاسف الشديد كتاب مختصر غاية الاختصار و ان المؤلف قد اهمل المشاكل التى كان يجب النقاش فيها و البحث عنها و لوكان مولانا شبلى (و هو استاذ الشيخ سليمان الندوى المذكور) حيا لرجوته ان يقوم بمثل هذا العمل اما الان فلايمكن لاحد غيرك ان ينهض بهذا العمل و كنت قد الفت كتيبا صغيرا عن الاجتهاد الا اننى لست براض مطمئن ببعض ما جاء فيه و هذا ما جعلنى لم اخرج هذا الكتيب حتى الان !"

و كذلك فان اقبال لم يكن يؤمن بالاجتهاد الحر الذى لا يتقيد بشروط و لا يقف عند حد انه كان يؤمن بان الاجتهاد ماض الى يوم القيامة كما ان الجهاد ماض الى يوم القيامة انه كان يعتقد بان باب الاجتهاد مفتوح و سيظل مفتوحا الى يوم القيامة و لكنه لا يليق باحد ان يدخل من هذا الباب حافيا عاريا ! و بدون شروط او مؤهلات ! و لقد كان يرى ان الاجتهاد يجب ان تكون له شروطا تسبقه و تؤهل المجتهد لهذا المنصب العظيم و يجب ان يتصف بأوصاف لازمة و من ذلك العلم باللغة العربية و العلوم الدينية الاخرى و من ثم كان يعتقد اقبال بان الذين يفدون على اوربا من الباحثين المسلمين للدراسات الفقهية لا يعودون بما يؤهلهم للاجتهاد و النهوض بالفقه الاسلامى و تدوينه الجديد و كان ينصح لاخوانه من طلاب العلوم الاسلامية ان يفدو اعلى المراكز الثقافية الاسلامية فى الشرق الاوسط من امثال جامعة الازهر ففى احدى رسائله التى كتبها الى شاب مسلم متحمس للدين كان قد اعتزم

على ان يدرس الفقه الاسلامى فى بعض الجامعات الاوربية حتى يعود بعلم غزير فيقوم بخدمة الفقه الاسلامى فى شبه القارة ، يقول له اقبال :

''عليک ان تذهب الى مصر و يجب ان تتقن العربية قبل كل شيء ثم يجب عليک ان تدرس العلوم الاسلامية دراسة شاملة و تدرس تاريخ الاسلام الدينى و الثقافى و السياسى كما يجب عليک ان تعرف عن التصوف الصحيح و الفقه و التفسير معرفة جيدة عميقة حتى تتمكن من الوصول الى الروح الحقيقية من الدين القيم الذى جاء به سيدنا محمد العربى صلى الله عليه وسلم ثم اذا كانت عندک كفاءة و موهبة و عزيمة صادقة على خدمة الاسلام فحينئذ تستطيع ان تؤسس منظمة من أجل النهضة الاسلامية !''

ثانيا. فى شعره :

و أما آراء اقبال فى الفقه الاسلامى و التجديد و الاجتهاد و النهضة و الوحدة فى شعره فحدث بها و لا حرج و هو معين لا ينضب و بحر لا ساحل له و لايسع هذا المقال المختصر الا بعض الجوانب من ذلک.

فقد كان اقبال يرى بان التحرر من تقاليد الاباء و من قيود الماضى و رواسبه لمما يجب على الانسان حتى يستفيد من حاضره و يتمتع بما يفيض عليه الحال من المتع و التسهيلات و يعتقد بأن الاحتذاء بالاباء و اقتفاء آثار الماضين لوكان مما يستحسن لكان الانبياء قد تبعوا آباءهم و اتبعوا آثارهم و لم يخرجوا على ما وجدوهم عليه فيجب على الانسان ان يتحرر من قيود الماضى و تقاليد الاباء حتى يتمكن من التمتع بالحاضر و يستفيد مما يجدى عليه من الفوائد و المنافع و التسهيلات و هذا لا يتحقق الا بالاجتهاد و التجديد و الانطلاقة الحرة !

و هذا ما جعل اقبال يلح على المسلمين بتعلم العلوم الغربية الحديثة فهو يقول :

''ان حانات الغرب مفتوحة امام كل نازل و طارق و ان طغيان العلم الغربى الحديث ليس اثما كله !''

ثم يقول فى هذا المعنى نفسه :

''ان جرعة الخمر الافرنجية و ان لم تكن دائمة اللوعة و الفرح و السرور الا انها ليست نجسة كلها !''

و يقول اقبال بأن أخطر مرحلة فى حياة الشعوب انما هى مرحلة التغيير و الانتقال من نقطة الى اخرى و ذلک حين توشک التقاليد القديمة ان تموت و تحل محلها التقاليد الحديثة و المبادئ الجديدة و فى هذا المعنى يقول اقبال :

''ان الخوف و التحذر عن المبادئ الجديدة و الثبات و الاصرار على التقاليد المتوارثة القديمة انما هو اخطر المراحل فى حياة الشعوب و تاريخها !''

ان فكرة الامامة و القيادة فى الشريعة الاسلامية لها معان و لها مكانة و كان يعرفها اقبال و يقدرها ولكن الذى كان يدهشه هى وظيفة الامامة للمساجد فى المجتمعات الاسلامية ! ان الامامة الاسلامية تعنى قيادة الشعب المسلم و ارشاده فى الازمات الشديدة و الأوضاع الطارئة اما هؤلاء الائمة الذين يؤمون بالناس فى المساجد فهم المساكين لا يقدرون على ان ينهضوا بشيء و معظمهم متخلفون متزمتون ! و انى لهم ان يقودوا شعوبهم او يهدوا الطريق لها فى وسط الظلام الحالك و الازمات الخطيرة و الى ذلك يشير اقبال حين يقول :

"ما هو الشعب ؟ و ما هى امامة الشعوب و زعامتها ؟ هى اشياء لا يدركها هؤلاء الائمة المساكين الذين يصلون بالناس ركعتين او اكثر !"

و انما كان يريد اقبال ان يكون للامامة معنى رفيعا و مكانة مرموقة و كان يحب ان يرى الاوصاف القيادية فى رجال الدين المسلمين حتى يتمكنوا من الاجتهاد و قيادة الامة و امامتها فى اصح معانى الكلمة و ادقها و حتى يستطيعوا القيام بواجبهم فيقودوا الامة الاسلامية فى ميادين الفكر و العمل و لكن يا للاسف ! امام المسجد او رجل الدين فى مجتمعنا الاسلامى لم يعد قادرا على شيء غير الامامة فى الصلوات فقط ! و هذه خسارة ايما خسارة !

و للعلامة اقبال ديوان من الشعر الاردوى قد سماه بضرب الكليم و حقا هذا الديوان تحدى كبير و ضربة موسوية قاضية على اصنام الانسان الحديثة و افكاره الهدامة الباطلة و انما هو اعلان حرب على فساد الفاسدين و كيدهم و فى هذا الديوان قطعة شعرية رائعة عنوانها (الاجتهاد) ينقد فيها رجال الدين الكسالى المتزمتين الذين يفرون من تطبيق الاحكام القرآنية و يخشون الاجتهاد الاسلامى و نتائجه المستنبطة المفيدة فيقول ما معناه :

" و انى لاحد ان يتعلم حكمة الدين فى بلاد الهند لانها لا يوجد فيها اصحاب السيرة الجيدة و السلوك الحسن من العلماء و الفقهاء كما انه لا يوجد فى هذه المنطقة اصحاب الفكر العميق و كذلك فان فئة المتحمسين من المفكرين لا تملك شيئا من الفكر المتحمس الجرىء ! و من الاسف الشديد ان الاستعباد و التقليد المتزمت قد ذهب بحوافز البحث و التحقيق ! ماذا حدث بفقهاء المسجد و رجال الدين الغافلين الذين لا يغيرون ما بانفسهم من التخلف و التزمت و انما يريدون ان يغيروا القرآن الكريم و يحرفوا معانيه ! ان هؤلاء العبيد المساكين يعتقدون بان هذا الكتاب المبين ينقصه اشياء كثيرة اذ هو لا يقدر على ان يعلم المؤمن طرق العبودية و قواعدها و الاقتناع بها !"

و يقصد اقبال بان القرآن الكريم كلمة الله التى لا تبديل لها ! و مهما يكن من شيء

فانه لا يحل لمجتهد ان يقوم بتغيير في حكم من احكامه فهو يزجرو يوبخ هؤلاء الفقهاء و رجال الدين المتزمتين الذين اقتنعوا بلقمة العيش و حياة العبودية و الذل و المسكنة و يتحذرون الاحكام القرآنية التي تأمر الانسان ان يؤمن بالله وحده و لا يخاف احدا غيره و يخضع لاوامره و يجتنب الشرك و الخضوع لغير الله لان ذلك هو الخسران المبين و الدمار و البوار كما يقول الشاعر :

اذا كان غير الله للمـرء عدة اتته الرزايا من وجوه المكاسب

و كان اقبال يحذر المتزمتين و يخوفهم من النتائج المنتظرة من التزمت و الركود و ذلك لان الدهر لاينام و لا يركد و لا ينتظر و ان الغافلين النائمين يخسرون دائما كما يقول القائل و هو ابو العطاء الاندلسي :

يا غافلا و لـه في الدهر موعظة ان كنت في سنة فالدهر يقظان !

و كان يرى اقبال بان هذا الكون الواسع الذي لا يعرف احد حدوده الا الذي ابدعه و خلقه ، لا تنقضي عجائبه و هو دائم التغير و الحدوث و ان الله سبحانه و تعالى خالق الكون و مدبر امره لا يزال يزيد في خلقه ما يشاء و انه سبحانه و تعالى كل يوم هو في شأن و من ثم من المستحيل ان يتبع هذا الكون لقواعد الركود و التزمت و السكون و انما هي حركة دائبة دائمة لا مجال فيها للركود و السكون و هذا هو نظام الكون و سنة الله في خلقه ، يقول اقبال :

"من المستحيل وجود السكون و الركود في هذا المصنع الواسع للقدرة الالهية من الكون ! لا يثبت شيء و لا يدوم في الزمان ان الشيء الوحيد الذي له ثبات في الزمان انما هو قانون التغير الدائم المتواصل !"

ان عقيدة المهدي او المنقذ توجد تقريبا في كل امة من الامم و في كل ديانة من الديانات و قد دلت الاثار و المرويات على وجود هذه العقيدة عند المسلمين كذلك اما اقبال فكان رجلا عمليا واقعيا و لم يكن ليهتم بصحة هذه العقيدة او عدم صحتها و انما يهمه كل الهم ان يظهر قائد او امام يقود البشرية التي تعاني من الشدائد و المشاكل في الشرق و الغرب الا انه لا يجد قائدا او مهديا بين السياسيين و رجال الكهنوت و رجال الدين في الشرق و الغرب الا انه يستمر في بحثه عن قائد او امام يقود العالم البشري :

"ان العالم البشري في اشد حاجة الى مهدي يهدي الناس الى الحق ! ذلك المهدي الذي يثور ضد الاوضاع الراهنة و ينظر الى العالم الفكري الحاضر

و يقول عن ذلك المهدي على الحق :

فاقدم فى طلابك آدمياً كذاك الله فى طلب الرجال

و فى ضرب الكليم قطعة شعرية اخرى و عنوانها :

(الامامة !) و فى هذه القطعة يعطى اقبال فكرة واضحة عن الامام القائد المهدى الذى يستطيع ان يقوم بدور القيادة و الاجتهاد :

"انك قد سألتنى ايها السائل عن حقيقة الامامة و انى ادعو الله لك ان يجعلك عالما بالاسرار و الرموز حتى تعرف الحقيقة و تراها رأى العين كما اراها انا ! ان امام الحق فى زمانك انما هو الذى يستطيع ان يقوم بتغيير ثورى فيريك معائب الماضى و الحال و يمهدلك طريقا جديدا !"

ثالثا : فى محاضراته :

و اما المحاضرة التى القاها اقبال عن الاجتهاد و التى يضمها كتابه الخالد (تجديد الفكر الدينى فى الاسلام) فانه لم يعنونها بالاجتهاد كما سبقت الاشارة الى ذلك و انما اعطاها عنوانا ينبئ عن مكانة الموضوع و اهميته و هو : (مبدأ الحركة فى بناء الاسلام) و هذا العنوان اللطيف يشير الى امرين اولهما ان اقبال يرى بان الاجتهاد هو المبدأ الوحيد الذى يجعل الفقه الاسلامى مادة غزيرة و قوة حيوية تلائم كل زمان و مكان كما انها تساير موكب الحضارة الاسلامية فى كل مكان و الثانى ان الاسلام دين الحركة و الثورة و الحياة و انه لا صلة له بالرجعية و التزمت و التخلف و انما هو دين السلدة القادة الاباة الاحرار فلا مجال فيه للتقليد الجامد الاعمى و الركود و العبودية و ذلك لانه حركة ثقافية تقوم على اسس روحية عادلة و من ثم يرفض الروابط المادية الارضية بما فيها قرابة النسب و الدم و الجنس و الوطن ! انه دين الثورة و التغيير و فى كل لحظة له شأن جديد لان البارى سبحانه و تعالى كل يوم هو فى شأن و انه دين التجديد و التطور و التقدم لان الله عز و جل لايزال يزيد فى الخلق ما يشاء ! و انه دين الوحدة و الاخوة و المساواة لانه دين الغربة و الغرباء و الذى لا يؤمن بالروابط المادية و الارضية فهو دين بدأ غريبا و سيعود غريبا فطوبى للغرباء ! كل الناس سواسية فيه كاسنان المشط لانه دين التوحيد و الوحدة البشرية فان الرب رب واحد و ان الاب اب واحد فلا فضل لاحد على احد الا بالتقوى و ان اكرمكم عند الله اتقاكم !

و فى هذه المحاضرة نقطة اخرى يجب ان نتخذها فى الحسبان و الاعتبار و هى ان شاعر الاسلام رحمه الله يلفت انظارنا الى مادة الاجتهاد اللغوية فيشير الى ذلك و يقول ان مادة هذه الكلمة (اى الاجتهاد) هى نفس المادة التى ترجع اليها كلمة (الجهاد) و (المجاهدة) فمادام الجهاد يمضى الى يوم القيامة فلم لا يكون الاجتهاد كذلك ؟! و مادام الله سبحانه و تعالى يهدى السبيل لمن جاهد فى طريقه حيث يقول و هو اصدق القائلين : (و الذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا !) فمن الجائز كذلك ان يهدى المجتهد

الذى يجاهد فى سبيل دينه و يبذل جهده فى تحقيق اهدافه و لم لا يكون كذلك فقد قال الرسول صلى الله عليه وسلم بأن للمجتهد المصيب اجران و حتى المجتهد المخطى يكتسب اجرا واحدا على الاقل !!

و قد تناول اقبال فى محاضرته شتى الجوانب من الاجتهاد فمنها مصادر الشريعة الاسلامية و اصول الفقه الاسلامى الاربعة المتفق عليها و هى : القرآن الكريم و الحديث النبوى و الاجماع و القياس و قد فصل القول فى كل مصدر من هذه المصادر .

و اما المراجع التى عول عليها اقبال فى اعداد هذه المحاضرة فهى كثيرة قد صرح ببعضها و اشار الى البعض منها كما انه لم يذكر البعض منها صراحة و لا اشارة الا ان الدارس يستطيع بسهولة ان يدركها و من بين هذه المراجع الكثيرة كتاب الام للشافعى و رسالته و الموافقات للشاطبى و المحلى لا بن حزم الظاهرى و العديد من مؤلفات الامام ابن تيمية و الباقلانى و السرخسى و السيوطى و غيرهم من اعلام الفقه الاسلامى.

و من اهم جوانب هذه المحاضرة هى الاسباب التى استخرجها اقبال و التى جعلت فقهاء الاسلام المحافظين يعلنون باغلاق باب الاجتهاد و اهمها ثلاثة :

اولا : الحركة العقلية التى ظهرت فى تاريخ الفكر الاسلامى فى صدر الدولة العباسية و التى اثارت ضجة و خلافات مريرة تركت اثرا سيئا فى تاريخ الاسلام و من المسائل الخلافية الهائلة هى مسئله قدم القرآن و حدوثه و لقد كان لهذه الحركة ردود فعل من اهل السنة الذين كانوا يعتبرونها عاملا من عوامل الانحلال و خطرا على استقرار الاسلام كدستور اجتماعى يوحد بين افراد المجتمع الاسلامى.

ثانيا : نشأة التصوف المتطرف تحت تأثير الافكار الاجنبية و هذا التصوف المتطرف فى الزهد و الرغبة عن الدنيا و ما فيها قد كان اعراضا عن كل شئ و حتى عن الفقه و الكلام انه اصبح صورة من صور التفكير الحر فى الاسلام فيما بعد و من ثم انضم الى الحركة العقلية الحرة المار ذكرها !

ثالثا : و فوق ذلك كله جاء سقوط بغداد و تخريبها على ايدى التتر و لقد كان هذا الحدث كارثة كبيرة و نكبة فادحة جعلت رجال الدين المحافظين يخشون انحلالا آخر فى العقيدة الاسلامية و فوضى خطيرا فى الفكر الاسلامى فركزوا جهودهم كلها على شىء واحد و هو الاحتفاظ بوحدة المجتمع الاسلامى الفكرية و العقائدية فرفضوا الاجتهاد و منعوا التجديد فى احكام الفقه التى وضعها الفقهاء الاوائل !

و لكن اقبال يرى بأن هؤلاء المحافظين من الفقهاء كانوا خاطئين فى رأيهم هذا ! فقد فاتهم شئ مهم جدا و هو ان مصير اى شعب من الشعوب لا يقصر على قيود المنع او النظام المتشدد و انما يقصر على قيمة الافراد و قوتهم ! هؤلاء الافراد الذين يكونون شعبا و يمثلونه ! و كان يجب ان يدرك هؤلاء الفقهاء المحافظون بان المجتمع البشرى الذى يسوده التنظيم الغالى فى المنع و التشدد يتلاشى فيه الفرد و يفقد وجوده و معنويته نهائيا ! و ذلك لان الفرد فى مثل هذا المجتمع و ان تمتع بما حوله من الفوائد و المنافع الا انه يفقد روحه و ذاته !

و من اهم ما نادى به اقبال و كافح من اجله هى حرية الفرد البشرى و كرامته و لكنه لم يتطرف فى ذلك ايضا و انما حاول ان يقيم التعادل و التوازن بين الفرد و المجتمع و ان خير الوسائل التى تستطيع ان تقيم هذا التعادل و التوازن هو النظام الديموقراطى و من هنا اتجه اقبال فى عصره الى تركيا الكمالية الدولة الاسلامية الوحيدة التى كانت تتمتع بكامل حريتها و استقلالها و كان اقبال معجبا بالاتراك الاحرار وجهودهم التى كانوا يبذلونها من اجل الدولة الاسلامية المستقله و انشاء المؤسسات الديموقراطية فيها و اتخاذ الخطوات الايجابية نحو النهضة و التقدم مستعينين فى ذلك بمبادئ التجديد و الاجتهاد الاسلامى ! الا ان اقبال لم يكن ليعجبه بعض الخطوات المتطرفة التى اتخذها الاتراك من الغاء الخلافة و التطرف فى التجديد و المسائل الاجتهادية و من ثم قد نقد اقبال الاتراك المتطرفين من امثال الشاعر ضياء كما انه كان يشيد بجهود الاتراك المحافظين الذين حاولوا الجمع بين الدين و الدولة من امثال سعيد حليم باشا.

و من اهم الاقتراحات التى قدمها اقبال فى محاضرته هذه عن الاجتهاد و التى يجب ان نهتم بها هى :

اولا : لا بدلنا ان ندرس الفقه الاسلامى دراسة شاملة من جديد و خاصة اصول الفقه الاربعة المتفق عليها و بهذه الدراسة الشاملة سوف يتضح لنا جليا بان الجمود المزعوم عن مذاهبنا الفقهية الاربعة المعترف بها ليس بشىء و ان هناك امكانيات واسعة الافاق لتطوير الفقه الاسلامى الجديد على اسس الاجتهاد و مبادئه المعترف بها.

ثانيا : و ما دامت الخلافة قد الغيت فلم يبق لنا الان الا ان تسمح لكل دولة اسلامية تحتفظ باستقلالها و تبذل جهودها المكثفة فى انشاء المؤسسات الديموقراطية و تقويتها و تدعيمها مثل مجالس الامة و المجالس النيابية و لجان العلماء و الفقهاء المتخصصين ليقوموا بعملية الاجتهاد و بذلك نستعيد الوحدة الاسلامية الشاملة كما دون الفقه الاسلامى الجديد يساير مع المتطلبات العصرية. و قد ايد الكثيرون

من العلماء المتخصصين آراء اقبال و اقتراحاته فهذا هو الفقيه المعاصر العلامة الشيخ محمد ابو زهرة يتقدم باقتراح يؤيد ما قاله اقبال :

فاذا اردنا ان نعيد للشريعة و فقهها روحها و حيويتها بالاجتهاد الواجب استمراره فى الامة شرعا و الذى هو السبيل الوحيد لمواجهة المشكلات الزمنية الكثيرة بحلول شرعية جرئية فالوسيلة الوحيدة الى ذلك هى ان نؤسس اسلوبا جديدا للاجتهاد و هو اجتهاد الجماعة بدلا من الاجتهاد الفردى و طريقة ذلك ان يوسس مجمع للفقه الاسلامى على طريقة المجامع العلمية و اللغوية (الاكاديميات) و يضم هذا المجمع من كل بلد اسلامى اشهر فقهائه الراسخين ممن جمعوا من العلم الشرعى و الاستنارة الزمنية و صلاح السيرة و التقوى !"

ثالثا : فى هذا العصر الذرى لم يعد لنا من الممكن ان نعيش بمعزل عمايجرى فوق الكرة الارضية التى تقلصت امام احدث الوسائل من الاعلام و المواصلات و من ثم لم يعد من المناسب ان نستمر فى جهودنا الفردية فى الاجتهاد و انما يجب علينا ان نقوم بالاجتهاد الجماعى و خير مكان لمثل هذا الاجتهادهى مجالس الامة او المجالس الوطنية لكل بلد اسلامى ، و يفضل اقبال ان يكون فيها الاعضاء من العلماء المتخصصين المعترف بعلمهم و صلاحهم عند جماعة المسلمين بدل ان تكون لجان للعلماء تشير على مجلس الامة او ينقد ما قرره من القوانين فتوافقه او ترفض لان ذلك قد يكون خطراً على عملية الاجتهاد او التطور الديموقراطى للبلد.